

مطبعة مصر

ثروت أباظة

# القصّة في الشعر العربي

مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء



# القصة

## في الشعر العربي

ثروت أباطة

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جوية السحار وشركاه  
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



## مقدمة

القصة بشكلها الحالى جديدة على الأدب العربى . وأعتقد أن العرب لم يكونوا فى حاجة إلى القصة أو المسرح ، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن منابت هذين الفنين . وإن كانت الرحلات التجارية قد قامت بدور كبير فى تناقل الحضارات ، فإننى أعتقد أن التجار من العرب لم يكونوا يهتمون بمجال القصة أو المسرح ، فقد كان شعرهم يغنيهم عن الفنون الأدبية الأخرى غناء كاملاً ، فالنثر الأدبى نفسه لم يزدهر إلا حين نزل القرآن على النبى ﷺ ، وقد كان الشعر يشيع فى نفوسهم النزعة التى تنزع بعشاق القصة اليوم إلى قراءتها .

ولما كنت أرجو ألا تتسم هذه الدراسة بسمة منهجية فإننا سنختار من الشعراء من نشاء ، دون أن نتقيد بعصر معين ، وإنما نمد أيدينا إلى المكتبة ونختار من شعرائها من يطيب لنا أن نختاره ونقلب العين بين قصائده . ونرى أثر القصة فى شعره . فاعتقادى أن ما كانت ترويه هذه القصائد وما كانت تتناقله ألسنة العرب بعد ذلك جعلهم فى غنى عن إنشاء القصة وروايتها .



### القصة فى شعر جميل بثينة

وقد اخترنا شعر جميل بثينة لنبدأ به هذا البحث .

وجميل هو جميل بثينة . انتسبت إليه فتناقلت الأجيال اسمها ، لأن شعر جميل دمع الأجيال بعدوبته ورقته . أما اسم جميل فهو جميل بن عبد الله بن معمر من بنى عذرة من قبيلة قضاة . وبثينة أيضاً من عذرة ، فليس عجيباً إذاً أن يشب بينهما الحب . وليس من المعروف متى ولد جميل . إلا أنه عاش فى عهد معاوية بن أبى سفيان من ٤٠ إلى ٦٠ هجرية . أما موت جميل فكان فى عام اثنين وثمانين هجرية ، ومن عجب أن يعى التاريخ عام موته ولا يعى عام مولده . لا علينا ....

ويروى التاريخ أيضاً أن جميلاً كان وسيماً قسيماً ، طويل القامة عريض المنكبين متأنق الملبس ، أما بثينة فيقول عنها العقد « وصفها جميل بعين المحب . ووصفها غيره كما يراها كل من رآها . فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها كانت أدماء طوالة كما قال عمر بن أبى ربيعة وأنها تفرع النساء طولاً » أما جميل فيقول فى وصفها « حسناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة ولم يعرقها شظف العيش ، فهى رقيقة معتدلة الخلق سامقة الخلق ، مستحبة الملامح لمن يراها ، مفتوناً بها أو غير مفتون » وقيل إن بثينة حين علمت بحب جميل لها وتشبيهه بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه لا تتوارى عنه . وهكذا وضعت بثينة فى هذه الفترة السحيقة البعد فى أغوار التاريخ مبادئ حرية الحب ، وحرية اللقاء .

— ٦ —

وأحسب أننا لو تتبعنا أخبار العاشقين من خلال التاريخ لطال بنا الحديث وما خلصنا إلى الشعر الذى نريد أن نستشف القصة من خلاله .  
بنا الآن إلى شعر جميل الذى قال عنه كثير « هل وطأ لنا النسيب إلا جميل » اسمعه معى يقول :

وأول ما قاد المودة بيننا      بواذى بغيض يا بئين سباب  
وقلت لها قولاً فجاءت بمثله      لكل كلام يا بئين جواب  
لقد روى لك فى هذين البيتين قصة اللقاء والحب بينهما ، وكيف  
نشأ هذا الحب أول ما نشأ على سباب بينهما ، وشأن الكاتب القصصى  
الذى لا يريد أن يعنى بالتفاصيل الملح إليك أنه قال قولاً فجاءت بمثله .  
وأنهى القصة بالحكمة التى كان ينهى بها القصاصون قصصهم فى  
الأزمان الخالية : لكل كلام يا بئين جواب . ولك أنت أن تتخيل القصة  
وتنسجها ما طاب لك التخيل والنسج ، فإن أجمل أنواع الفن هو ذلك  
الذى يترك لك أن تشارك فيما يخلقه الفنان ، وتتخيل معه وتعيش دنيا  
فتح لك أبوابها وترك لك حرية الحياة فيها .  
وانظر إلى قوله :

ألا أيها النوام ويحكمُ هبوا      أسألكم هل يقتل الرجل الحب ؟  
فقالوا نعم حتى يسلم عظامه      ويتركه حيران ليس له لب  
ألا رب ركب قد دفعت وجفهم      إليك ولولا أنت لم يوجف الركب  
بئنة ما فيها إذا ما تبصرت      مصاب ولا فيها إذا نسبت أشب  
لها النظرة الأولى عليهم وبسطة      وإن كرت الأبصار كان لها العقب



إذا ابتذلت لم يزرها ترك زيننة وفيها إذا ازدانت لدى نيقة حسب  
لو أننى أردت أن أقص عليك هذه القصة لقلت لك فى ذات ليلة  
جفانى النوم والناس جميعاً نيام ورحت أفكر و ...  
أما هو فصرخ فجأة ألا أيها النوم ويحكم هبوا .. إنه فجأة اكتشف  
الأمر الخطير وراح يوقظ الناس ويسألهم هل يقتل الحب الرجل . وأجابوه  
- نعم ويسل عظامه ويتركه حيران ليس له لب ولا عقل ...  
وكأنما استراح إلى هذا رأى وعلم أن لا بأس به إذن أن ينتظر  
الموت ما دام يجب بهذا العنف ، فهو ربما يجعل الركب يجرى راكضاً إلى  
بثينة ، ولولا بثينة ما جرى الركب . بثينة التى لا عيب فيها إذا وقعت  
عليها العين ولا خلط فى أنسابها إذا هى انتسبت . إذا رأتها عين بين  
نساء غيرها كانت النظرة الأولى من نصيبها ، وما تلبث العين أن تعود  
إليها ، فليس بين النساء من تستحق النظرة إلا هى . تبده بجمالها فتلقف  
العين حين ثمر العين مروراً سريعاً ، وتقتنص النظر إذا أرادت العين أن  
تنعم النظر ، وإذا لبست ملابس البيت لا ينقص جمالها تركها للزينة ، وإن  
تجملت فهى المثل الأعلى للأناقة . قصة وصفية من خيرة القصص  
الوصفية ، وصف نفسه ومشاعره ووصف الركب فى طريقه إليها ،  
ووصف جمالها وحسبها ، ووصف العين ناظرة إليها ، ووصفها فى بيتها  
بلا زينة ثم وصفها وهى فى كامل زينتها . ويظل حب جميل يمتطى  
الأجيال حتى أدركنا فى عصر الذرة والصعود إلى القمر . وهذا التقدم  
العلمى الذى يذهل العلماء والذى ما كان ليخطر على بال جميل ولا

معاصريه . أليس هذا دليلاً على أن العالم مهما يتقدم فى علمه يظل محتاجاً إلى الحب والفن والجمال .

وقد سألتى مرة سائل : ما دور الأدب فى حياة العلم هذه التى تطالع العالم ؟ فلم أزد على أن قلت : لو لم يكن له دور ما بقى . وهل أدل على بقاءه ، وثبوته فى البقاء من أننا لانزال نتحدث عن جميل وبثينة ؟ .  
استمع معى إلى هذه القصة المكتملة من شعر جميل :

مازلت أبغى الحى أتبع فلهم	حتى دفعت إلى ربيعة هودج
فدنوت مختفياً لم بيتها	حتى ولجت إلى خفى الموج
قالت وعيش أبى وحرمة والدى	لأنهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فبسمت	فعلمت أن يمينها لم تخرج
فتناولت رأسى لتعرف مسه	بمخضب الأطراف غير مشج
فلثمت فاهها آخذاً بقرونها	شرب النريف ببرد ماء الحشرج

ما أظننى فى حاجة إلى أن أتبع سير القصة فهى كاملة . إنه رجل راح يتتبع آثار حبيبته حتى عثر عليها ، فراح يتخفى عن العيون حتى بلغ البيت ودخله دخولاً رقيقاً متخفياً . فإذا حبيبته تثور به أن اقتحم عليها المنزل ، فهى تلقى الأيمان أنها فاضحته إذا لم يخرج . فإذا هو يخشى أن تنفذ وعيدها ، فيوشك أن يخرج خوف يمينها ، ولكنه فى نظرة الوداع الأخيرة يرى طيف ابتسامة على فمها فأيمانها إذا غير مخرجة ، وهى لن تفضحه ، وإنما هى تمد يدها لتلمس رأسه ويتم اللقاء . إنها قصة تحمل العوامل النفسية لكل حركة فيها . كاملة لا ينقصها شىء .

— ٩ —

ثم استمع معى إلى هذه القصة الطويلة التى يدور فيها الحوار بين الحبيين أجمل ما يكون الحوار ، حتى إذا أحس أنها توشك أن تقسو عليه راح يزوى ذكرياته كأنما لا يريد إلا إزجاء الحديث إزجاء على حين أنه فى الواقع يستمنح الحبيب العطف والرضا :

أمن آل لىلى تغتدي أم تروح وللمغتدي أمضى هموماً وأسرح  
ظللنا لدى لىلى وظلت ركابنا بأكوارها محبوسة ما تسرح  
إذا أنت لم تظفر بشيء طلبته فبعض الثأنى فى اللبانة أنجح

\* \* \*

وقامت تراءى بعدما نام صحبتى لنا وسواد الليل قد كاد يجلح  
وانى وإن لم تسمعى لىلى لأحمد نفسى فى الثأنى وأمدح  
وبشة قد قالت .. وكل حديثها إلبا - ولو قالت بسوء - ملمح

\* \* \*

تقول بنى عمى عليك أظنه وأنت العدو المسرف المستطح  
وقالت : عيون لا تزال مطلة علينا وحولى من عدوك كشح  
إذا جئنا فانظر بعين جلية إلبا ، ولا يغفرك من يتصح  
رجال ونسوان يريدون أننى وإياك نخزى يابن عمى ونفضح  
وقالت : تعلم أن ما قلت باطل أيادى سبا منهن إن كنت تمزح  
وحولى نساء إن ذكرت بريئة شئت وما منهن إلا ستفرح

- ١٠ -

أمن أجل أن عجننا قليلاً ولم نقل      ليلى كلاماً - لا أبالك - تكلح  
فمت كمداً . أو عش ذميماً فإنها      جيوب ليلى تحفظ الغيب نصح

\* \* \*

سلوا الواجدين المجربين عن العدى      وذو البث أحياناً يوح فيصرح  
أنقرح أكباد المحبين كالذى      أرى كبدى من حب بثنة يقرح  
فوالله ثم الله إنى لصادق      لذكراك فى قلبى الذ وأملح  
من النسوة السوء اللواتى أمرنى      بصرمك إنى من ورائك منفح  
لقد قلن مالا ينبغى أن يقلنه      وينضحن جلدأ لم يكن فيك ينضح

\* \* \*

ووالله ما أدرى أصرم تريد      بثينة أم كانت بذلك تمزح  
عشية قالت : لا يكن لك حاجة      رأيك تأسو باللسان وتجرح  
فقللت أصرم أم دلال وإن يكن      دلالاً فهذا منك شىء ملمح  
فإنى عرضت الود حتى رددته      وحتى لى فيك الصديق الكشح  
ذكرتك يوم النحر يابن ذكرة      على قرن والعيش بالقوم جنح  
ويوم وردنا الحجر يابن عادى      لك الشوق حتى كدت باسمك أفصح  
وليلة بتنا بالجنينة هاجنى      سنا بارق من نحو أرضك يلمح  
فعدت له والقوم صرعى كأنهم      لدى العيس بالأكوار خشب مطرح  
أراقبه حتى بدا مبتلج      من الصبح مشهور وماكدت أصبح  
أرأيت هذا الحوار وهذا النصح      وهذه الذكريات ، قصة كاملة من  
قصص الحب تمتزج فيها العاطفة المشبوبة بالعقل والحكمة ، وحين يثور

القلب على كل حكمة ويلجأ الشاعر إلى حبه وحده تحاول أن تصده ،  
 فيحكى لنا أنه قال : أصرم ذلك ؟ أقطيعة تريدنيها أم الدلال ؟ فإن يكن  
 دلالاً - وكم أرجو أن يكون - فما أملحه منك وما أطفه .. لقد واللّه  
 ذكرت الأيام الماضية ذكرت يوم النحر ويوم وردنا الحجر وبتنا بالجنينة  
 .. إنه يريد أن يطمئن نفسه أنه الدلال وليست القطيعة .. إن كل ذى  
 قلب أحب يدرك هذه القصة ويدرك العوامل النفسية التى تقف وراء كل  
 كلمة فيها .

ولو تركنا النفس على سجيتها لظللنا مع جميل لا نتركه ، ولكن  
 هناك شعراء آخريّن أغنوا الشعر العربى بقصصهم ، ولا بد لنا أن  
 نلاقيهم ، فإلى شاعر جديد .

### القصة في شعر امرئ القيس

وماذا علينا لو ضربنا في أغوار الزمن البعيد ننظر معاً هل استطاعت  
الجاهلية أيضاً أن تقدم شعراً ؟ وماذا عليها إن فعلت ؟ فلا الجاهلية ولا  
الشعراء الذين جاءوا بعد الدين الحنيف قصتوا أن يكتبوا قصة فيما  
ينظمون من شعر ، بل إن فكرة القصة لم تكن لتزد على أذهانهم جميعاً .  
فلنلق نظرة على بعض من شعر امرئ القيس . ولعل قصة امرئ  
القيس نفسها جديرة بأن تروى . فهي من أمتع ما جاء به تاريخ الشعراء  
العرب . فأبو امرئ القيس هو حجر بن الحارث وقد كان ملكاً على بني  
أسد وغطفان . وكان امرؤ القيس يحب أن يشرب الخمر ويصحب  
النساء ويقول الشعر . وكان أبوه يكره منه هذا جميعه ويضيق به ، حتى  
لقد أمر أحد أتباعه آخر الأمر أن يذهب به فيذبحه ويأتى له بعينه .  
ولكن التابع كان أحصف من أن ينفذ أمر الملك . فترك امرأ القيس  
خبيئاً ، وذبح جؤذرا وجاء بعينه إلى الملك . فندم حجر على ذلك فبشره  
التابع أنه لم يقتل ولده . فأمره بأن يأتيه به من فوره . فأتى به ، وصفح  
الأب ، ولكن الابن ظل على قول الشعر ، وصحبة النساء ، وشرب  
الخمر ، فأمر به أبوه وطرد . وعاش حياة نكد ، وقاسى الأهوال حتى  
قتل أبوه ، ولم يهب أحد من أبنائه الآخرين لينال الثأر . فوقع الثأر على  
امرئ القيس ، وقد قيل إنه حين وجد نفسه مطالباً بنيل الثأر لأبيه ،  
قال : « ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ، ولا سكر  
غداً ، اليوم خمر وغداً أمر » وآلى ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب حمراً ،

ولا يدهن بدهن ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه حتى يقتل من بنى أسد الذين قتلوا أباه مائة .

وقد استطاع امرؤ القيس أن ينال ثأره ، ولكنه قتل عن طريق آخر ، غير طريق الثأر ، فقد قيل إنه خرج إلى أرض الروم يطلب الحماية من القيصر بوسستيانوس ، ولكنه أحب ابنته فأحبته ، وسمع القيصر ، فأجمع أمره على قتله ، فهرب امرؤ القيس ، ولكن تابع القيصر أدركه عند أنقرة ، وقال له إن الملك كان يريدك لينعم عليه بحلة جديدة ، وقدم رسول القيصر الحلة إلى امرئ القيس فإذا هي مسممة ، وكان الجو حاراً فساعد العرق السم أن يسرى سريعاً ، ومات امرؤ القيس .

ألمست ترى فى حكاية أمر الملك أن يقتل ابنه . فيعدل التابع عن تنفيذ الأمر ، ملامح القصص الغربى العالمى ، الذى جعل من هذه الواقعة أساساً لكثير من الأعمال القصصية العالمية ، بل من قصص الأطفال أيضاً ، ترى هل تكررت القصة فى حياة ملوك الغرب فاستلهمها كتاب القصة ، أو هم نظروا إلى تاريخنا العربى واستوحوا منه ؟ لا أدرى .

بنا الآن إلى شعر امرئ القيس نتبع أثر القصة فيه ، وما أظنك ستنتظر من امرئ القيس قصة ذات بداية وعقدة ونهاية ، فهو أولاً وأخيراً لم يقصد أن يروى لك قصة ، وإنما هو يحكى لك شيئاً مما وقع له ، فى أسلوب قصصى . ونأتى فى عصرنا هذا لنجد فيما حكى أثراً لفن القصص ، ونستخلص أن هذا الفن جزء من النفس الإنسانية ، تنشئه

إنشاء إن لم تكن تعرفه ، وقد تطور هذا الفن فى الشعر العربى حتى أصبح قصصاً مكتملاً فى العصور التى تلت عصر امرئ القيس .  
يقول امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أنشاء الوشاح المفصل  
فجئت وقد نصبت لنوم ثيابها لدى السر إلا لبسة المتفضل  
فقلت : عین الله مالك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي  
خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثريها ذيل مرط مرجل  
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى عقاف عقنقل  
إذا التفعت لحوى تضوع ريجها نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل  
إذا قلت هاتى نولينى ثمايلت على هضم الكشح ربا المخلخل  
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترابها مصقولة كالسجنجل  
وأعتقد أنه لابد لنا أن نقدم هذه الألفاظ التى اعترضت طريقنا ونحن  
نقرأ القصة ، فالكلام لامرئ القيس ، وليس بالهين أن نقرأ امرأ القيس ،  
ولا نتعثر فى ألفاظه ، أما الثريا فهى نجم ، ونصبت الثوب خلعتة ، وأما  
لبسة المتفضل ، فهى ما يلبس عند النوم ، ولعلها من أجمل التعبيرات  
العربية ، وأما المرط الذى يجر جر فهو الثوب من الحرير والمرجل هو  
المخطط ، وانتحى معناها قصد ، والقفاف ما خشن من الأرض وارتفع ،  
وأما العقنقل التى لاشك صكت البصر ، فهى الرمل الكثير المنعقد بعضه  
على بعض ، ولعلك لاحظت معى أن جرس اللفظة العربية قريب دائماً  
بما تؤدیه من معنى ، وفى هذين اللفظين الأخيرين خير دليل على ذلك .



أما المهفهفة فهى ذات البطن الضامر ، ولعلها أيضاً تذكرنا بجرس اللفظة ومعناها ، والمفاضة هى ذات البطن الكبير ، والزائب هى النحر ، وهو موضع القلائد ، أما السجججل فهى المرأة .

أين القصة إذن ؟ إنه يروى عن مغامرة غرامية له ، وهو يبالغ فى الوصف شأن الفن الواقعى الذى لم يظهر فى الأدب إلا فى القرن التاسع عشر . وبطبيعة الحال لا تنتظر أن يكون واقعياً فى الأحداث ، إنما لابد له أن يقول إن المرأة مهما يكن من جمالها فهى لا تستطيع أن تقاوم أسره وفتنته ، وأنت لاشك تعرف أن الأغلبية الكاثرة من الشعر العربى ، كانت تكتسب جمالها من مقدار الكذب ، الذى كان يضيفه الشاعر على ما ينظمه ، وقد عاشت الأجيال تستمتع بهذا الكذب المنظوم ، بل إنها عاشت لا تقبله إلا منظوماً .

### القصة فى شعر عمر بن أبى ربيعة

لعل عمر بن أبى ربيعة هو أول شاعر فى العربية أحب الحب لذاته ، وعشق الهوى نفسه دون أن يثبت على حب واحدة بذاتها ، كما فعل مجنون ليلى ، وكثير عزة ، وجميل بثينة . فعمر بن أبى ربيعة أحب الكثيرات ، وغنى الحب لجيله وللأجيال بعده ، ويبدو لى أن عمر أحب الشعر كما أحب الحب ، ولم يكن عمر شاعراً فقيراً يتكسب بالشعر ويدور به على ذى الوجاهة والغنى ، فهو ينتسب إلى قريش وحسبه هذا نسباً ، وهو غنى موفور ، فالفن عنده للفن ، وإن كانت الأجيال التى تلت جيل عمر قد أحببت الفن ، وفكرت أنه قد يجلب إليها نباهة الذكر ، وبعد الصيت ، فما أظن هذا المعنى قد خالط حب عمر لفنه ، فقد كان نابه الذكر ، بحكم انتسابه إلى أشرف بيت عرفه العرب ، وقد كان يستطيع أن يوفد الشعراء فيتغنوا به ، ولكنه أراد هو أن يتغنى ، فغنّى أعذب الغناء وأجمله وأرقه .

وقد كان عمر فى مولده قريباً من عام هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد ولد عمر فى عام ثلاثة وعشرين للهجرة وتوفى سنة ثلاث وتسعين ، فهو إذن من شعراء صدر الإسلام ، الذين تأثروا بالشعر الجاهلى أعظم التأثير ، ولكن فى رهافة حس ، ونقاء فنى مشرق ، تخلص من ألفاظ الجاهلية الصعبة وجاء شعره كالنبع الرقاق الصافى . وفى هذه المحاولة التى نحاولها ، سنجد أن عمر بن أبى ربيعة من أعظم الشعراء الذين أحسنوا فن القصة ، وقدموا منها الكثير فى قصائدهم .

وقد استطاع عمر بعذوبته ، أن يفرض نفسه على جيله وعلى الأجيال بعده ، حتى يومنا هذا ، وإن الكثير مما نردده في حياتنا اليومية ، ينتسب إلى عمر لما في ألفاظه من موسيقى ، وفي نظمه من إحكام ، فلا تحس عنده لفظة تريد أن تنبو عن مكانها ، ولا قافية غير مطمئنة في بيتها .

ولعل قصيدته ( أمن آل نعم ) من أعظم القصائد التي ثبتت دعائم القصة في الشعر العربي ، ولعلها هي وبعض قصائد أخرى لعمر التي أوحى إلى أن أتبع القصة في الشعر العربي قدر الجهد ، وقد وقعت في يدي نسخة من ديوان عمر بن أبي ربيعة . أشرف عليها بشير يموت ، ووجدته يقول فيما قدم به الديوان : « وإنك لتجد له في قصيدته ( أمن آل نعم ) قصة لو تجرد لها قلم كاتب روائي ، لأخرج منها رواية ، لا تجد أبدع منها ولا أوفى في بابها ، في أسلوب ما يعرفه ربو ولا دى موسيه ولا غيرهما من معبودى الفتيان المتفرنجين » . وهكذا كان عجيباً أن ينظر إلى شارح الديوان ، من وراء عام أربعة وثلاثين وتسعمائة وألف ، ليجدني أحاول أن أقدم القصة في شعر عمر بعد ذلك بأربعين عاماً .

والآن فلنردد معاً قصيدة أخرى لعمر بن أبي ربيعة ، ولست بمحتاج أن أشير لك إلى مقدار العذوبة والرقّة التي تتمتع بها ، وإنني لمتثقل بك بعد ذلك إلى قصيدة أمن آل نعم ، ولكن يطيب لى أن أقدم هذه أولاً بين يديك ، وإنك لو اجد أن القصة فيها لا تحتاج إلى إشارة :

أرسلت خلتى إلى بآنا      قد أتينا ببعض ما قد كتمنا  
وبهجرانك الرباب حديثاً      سوءة يا خليل ما قد فعلنا  
وهجرت الرباب من حب سعدى      ونسيت الذى لها كنت قلنا  
ولعمرى ليحسن عزائى      عبك إذ كنت غيرها قد ألفتنا  
وكانى قد كنت أعلم أنى      لست إلا كمن به قد غدرنا  
غير أن قد غدرتى قبل خبر      فوجدناك كاذباً إذ خيرنا  
أين أيمانك الغليظة عندى      وموائيق كلها قد نقضنا  
لا تخون الرباب مادمت حيا      يا ابن عمى فقد غدرت وختنا  
وأيت الذى أيت بعمد      لم تهنا لذاك ثم ظلمنا  
إن نجد الوصال منك فإننا      قبح الله بعدها من خدعتنا  
من كلام تهزّه وبحلف      فلعمرى فرما قد حلفتنا  
ثم لم نوف أو خلفت بعهد      بمس ذو موضع الأمانة أتنا  
أترك تلمح قصة الحبيب الغادر وكيف اكتملت فى هذه الأبيات ،  
وكيف رواها لك على لسان خليلته ، وتحس برنة الاعتزاز . إنه غادر لا  
يقيم على عهد ، ولا يبقى على أيمان كثيرة ما كثرت هذه الأيمان ،  
وغليظة ما غلظت .

أين أيمانك الغليظة عندى      وموائيق كلها قد نقضنا  
لا تخون الرباب مادمت حيا      يا ابن عمى فقد غدرت وختنا  
هذه الأيمان التى كنت تقسمها ألا تخون الرباب مادمت حيا ، فقد  
غدرت وختت فبمس ذو موضع الأمانة أنت ، والشاعر سعيد تنزح

نغمات السعادة فى أبياته جميعاً أنه غير وفى ، إنه يمثل لنا فالنتينو وكازانوفا ودون جوان ، وكيف كان اعتزازهم أنهم لا ييقون على حب واحد ، وهكذا كان عمر بقصصه الشعرى ، يمثل حالة غريبة على عصره ، فحين كان جميل والمجنون وقيس ، يشبون بفتاة واحدة ، يرون الدنيا جميعها فيها ، ينتقل عمر بن أبى ربيعة بين الفتيات خفيف القلب ، رقيق الشعر ، سعيداً أنه يغدر بالفتاة قبل أن تغدر به ، ولا يراعى فى ذلك عهداً ، ولا ميثاقاً ، واثقاً أنها هى أيضاً ، لن ترعى عهداً أو ميثاقاً إذا طال الأمد بحبهما .

والآن بنا إلى قصيدته الشهيرة ( أمن آل نعم ) .

إن أكثر ما أخافه وأنا مقدم على قصيدة « أمن آل نعم » ألا أجد شيئاً أقدمها به ، ولا أجد شيئاً أعلق به على أبياتها ، فالقصيدة قصة كاملة ، وإن شئت أن تتناول خيوطها وتنسج لاستطعت أن تخرج برواية . وألفاظها سهلة ميسورة ، قريبة المعانى ، لا تكاد تحتاج إلى أى تعليق ، ومع ذلك فماذا علينا أن ننظر فى أبياتها معاً ، ثم نرى ماذا نستطيع أن نقول .

القصيدة طويلة ، وقد اخترت أن أجمع منها ما يكون القصة ، وهكذا حولتها فى هذا الاختيار من القصص الواقعى القديم إلى القصص الواقعى الحديث ، فقد كان القديم يعنى بالتفاصيل والوصف الدقيق ، وحين تطورت نظرية الأدب الواقعى ، أصبحت الخطوط القليلة تكون

الصورة ، دون كبير عناية بالتفاصيل ، وهكذا أصبحت قصيدة أمن آل نعم بعد أن حجبت منها بضعة أبيات فى الوصف :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غدا أم رائح فمهبجر  
 حاجة نفس لم تقل فى جوابها فتبلغ عذراً والمقالة تعذر؟  
 تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر  
 ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيتها يسلى ولا أنت تصبر  
 إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة لها كلما لاقيتها يتمر  
 عزيز عليه أن ألم بيبتها يسرى الشحاء والبغض يظهر  
 أكنى إليها بالسلام فإنه يشهر إلى ماى بها ويُتكر  
 بآية ما قالت غداة لقيتها بمدفع أكناف أهذا الشهر؟  
 ففى فانظري أسماء هل تعرفينه أهذا المغيرى الذى كان يذكر؟  
 فقالت : نعم لاشك غير لونه سرى الليل يحى نصه والتهجر

أو رأيت كيف استطاع فى هذه الأبيات القليلة أن يروى لنا صلاته القديمة بها ، وكيف قامت العداوة والبغضاء بينه وبين أهلها ، ثم كيف طال البعاد بينهما ، وكيف هى من حبه حتى لتقول لرفيقتها إنه هو وقد حال لونه وتغير من طول ما سرى فى الليل ومشى فى هجير الشمس وحرها ، ولو أراد القاص المتمكن أن يقدم لك هذا التاريخ جميعه ما استطاع أن يقدمه فى أبرع ولا أروع من هذه الصورة ، فهو يتنقل من لغة المتكلم إلى لغة الحوار فى مقدرة فائقة ، حتى ما تكاد تحس بهذا التنقل .

— ٢١ —

ثم هو يومئ إلى القصة بهذه البغضاء التى يكنها له بعض أهل  
حبيبته ، وكأن هذه البغضاء خير يتلى ولا صلة له بعقدة القصة . وهكذا  
يفعل القصصى البارع ، فهو لا يكشف عن النهاية ومع ذلك لابد له أن  
يؤمئ بها إيماء حتى لا تحيى النهاية مفاجئة ، ولنمض معاً إلى بقية  
الآيات :

وليلة ذى دوران جشمتى السرى      وقد يجشم الهول المحب المغرر  
فبت رقيباً للرفاق على شفا      أحاذر منهم من يطوف وأنظر  
إليهم متى يستمكن النوم منهم      ولى مجلس لولا اللبابة أوعر  
وبت أناجى النفس أين خباؤها      وكيف لما آتى من الأمر مصدر  
أرأيت هذه الحيرة التى تتردد فى نفسه ؟ إنها التشويق من الكاتب  
القصصى القادر ، ولا يطيل من هذه الحيرة شأن الكاتب المترفع الذى  
يعف عن تقديم التشويق للتشويق ، فيسوقه فى خيوط القصة سراً وكأنه  
لا يريد له لذاته .

فدل عليها القلب رباً عرفتها      لها وهوى النفس الذى كاد يظهر  
وهكذا يعود كاتباً قصصياً رومنسياً ، لقد عرف الخباء بعبق يعرفه  
من فتاته ، وبهوى قلبه الذى يكنه لها .

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت      مصابيح شبت بالعشاء وأنور  
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه      وروح رعيان ونوم سمر  
وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الـ      حباب وشخصى خشية الحى أزور

— ٢٢ —

أرأيت القصاس كيف يرسم صورته حين اطمأن أنه يستطيع أن  
يذهب إلى ضحيتها التي عرفها برباها وحبه قام يمشى كأنه الحباب ملتفتاً  
إلى الحى محاذرة أن يراه أحد وهو فى طريقه إليها . صورة فنية كاملة .  
ودون أى مقدمات .

فحييت إذ فاجأها فتوهلت وكادت بمكنون التحية تجهر  
وقالت وعضت باللبان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر  
أريتك أو هنا عليك ألم تخف رقيباً وحولى من عدوك حضر  
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة سرت بك أم قد نام من كنت تحذر  
فقلت وقد لانت وأفرخ روعها كلاك بحفظ ربك المتكبر  
فقلت لها بل قاذى الشوق والهوى إليك . وما نفسى من الناس تشعر

\* \* \*

فبت قرير العين أعطيت حاجتى ... أقبل فاها فى الخلاء فأكثر  
وترنو بعينها إلى كمارنا إلى ظبية وسط الخميلىة جوذر  
فما راعنى إلا مناد ترحلوا وقد لاح معروف من الصبح أشقر  
فلما رأت من قد تبه منهم وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمر  
فقلت : أباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثاراً فيثار  
فقلت : أتحيقاً لما كان كاشح علينا وتصديقاً لما كان يؤثر  
فإن كان مالا بد منه فغيره من الأمر أدنى للخفاء وأستر



— ٢٣ —

أقصّ على أختي بدء حديثنا ومالى من أن تعلمنا متأخر

\* \* \*

فقامت كئيباً ليس فى وجهها دم من الحزن تذى دمة تتحدر  
فقامت إليها حرّان عليهما كساءان من خز دمس وأخضر  
فقلت لأختيها أينما على فتى أتى زائراً والأمر للأمر يقدر  
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر  
فقلت لها الصغرى سأعطيه مطرفى ودرعى وهذا البرد إن كان يحذر  
يقوم فيمشى بيننا متكراً فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر  
فكان مجنى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومخمر  
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى أما تتقى الأعداء والليل مقمر  
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً ؟ أما تستحي ؟ أو ترعوى ؟ أو تفكر ؟  
إذا جئت فامنح طرف عينك غيّرنا لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر  
فآخر عهد لى بها حين أعرضت ولاح لها خد نقسى ومحجر  
أرأيت أجمل من هذا قصصاً متكاملأ ؟ .. ألم تتلاحق أنفاسك حين  
أسفر الصبح ووجده بين القبيلة ؟ ثم ألم تهدأ أنفاسك والأختان  
تؤنّبانه... لقد انتهت المشكلة فهما تريدان منها أن تكون له رادعاً  
فيرعوى ...

أترانى أحتاج إلى تعليق ... أما أنا فلا تعليق عندى ... فهل لديك  
أنت تعليق غير الاستحسان ؟ .

- ٢٤ -

### قصص قصيرة في شعر عمر

إن الناظر إلى شعر عمر يجد عنده مجموعة من القصص القصيرة الممتعة ، ومعروف أنه يجمل بالقصة القصيرة أن تكون قليلة الأشخاص ، متحدة في الزمن ، أى لا يتباعد الزمن بين أطرافها ، ويجمل بها أن تركز تركيزاً يوشك أن يكون كاملاً على الومضة التي لمحت في ذهن الكاتب ، لننظر معاً هل فيما وقعت عليه من القصص القصيرة عند عمر بن أبى ربيعة مثل هذا ... ؟

يقال إن عمر حين علت به السن أقسم لا يقول بيتاً من الشعر إلا أطلق جارية من جواريه ، وفي يوم وجد حبيبين يتناجيان فسألهما لماذا لا تتزوجان ؟ فقال الشاب : إن أبا الفتاة يطلب مهراً كبيراً فقال عمر : بنا إليه ، ودفع مهر الفتاة ، وتزوج الحبيبان ، وأحس عمر بالشعر يثور به فتوزعت نفسه بين أن يقول فيحدث بالقسم وبين أن يكتم هذا الرجل الذى يغلى فى صدره ...

ورأت جاريته المقربة ما هو فيه من حيرة فسألته عما به فلم يطق صبراً وانفجر بالشعر :

تقول وليدتى لما رأتنى طربت وكنت قد أقصرت حيناً  
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً وهاج لك الهوى داء دفيناً  
وكنت زعمت أنك ذو عزاء إذا ما شئت فارقى القريباً  
بربك هل أتاك لها رسول فشاقت أم لقيت لها خديناً ؟

فقلت : شكا إلى أخ محب كبعض زماننا إذ تعلمينا  
 فقص على ما يلقى بهند فذكر بعض ما كنا نسينا  
 وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا  
 وكم من خلة أعرضت عنها لغير قلى وكنت بها ضينا  
 أردت فراقها وصبرت عنها ولو جن الفؤاد بها جنونا  
 وأطلق تسع جوار ، لقد كان يريد أن يعيش للفن ، بل إننى أحسب  
 أنه ما أحب ولا غامر إلا ليقول الشعر ...  
 تراك هل لاحظت القرشى الأصيل يعف عن أن يذكر ما قدمه من  
 المال إلى العاشقين .

وإنما يذكر هذه النبضات التى تذكر بها بعض زمانه .. ثم هذا  
 البيت الذى مازال صدها يرن فى سمع الأجيال حتى اليوم .  
 وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا  
 معى إذا إلى قصة أخرى .. وهى لا تحتاج إلى مقدمات :  
 أرسلت هند إلينا رسولا غائباً أن مالنا لا نراكا ؟  
 فيم قد أجمعت عنا صدوداً أردت الصدام أم ما عداكا  
 إن تكن حاولت غيظى بهجرى فقد أدركت ما قد كفاكا  
 كاذباً قد يعلم الله ربي أننى لم أجن ما كنه ذاكا  
 وألبى داعياً إن دعانى وتصامم عامداً إن دعاكا  
 وأكذب كاشحاً إن أتانى وتصديق كاشحاً إن أتاك

— ٢٦ —

إن فى الأرض ساحاً عريضاً ومنادىح كثيراً سواكا  
غير أنسى فاعلمن ذاك حقاً لا أرى النعمة حتى أراكا  
قلت مهما تجدى بى فإنى أظهر الود لكم فوق ذاكنا  
أنت همى وأحاديث نفسى ما تغييت وإذا ما أراكا  
وتستطيع أن ترى فى هذه الأبيات صورة من أوضح الصور للقصة  
الحوارية فلقد ردت الأبيات موقفه الذى تأخذه عليه حبيته وغضبها ثم  
حبها ، فهى قائلة له إن الأرض واسعة وبها منادىح كثيرة سواء ، ولكنها  
لا تحب من الأرض ، ومن هذه المنادىح إلا هو ، ويعطف هو على هوى  
حبيته ..

ولا أستطيع أن أترك عمر بن أبى ربيعة ، ولا أذكر قصيدته الرائعة  
التي يتعلق بها — فيما يروى الرواة — حدث من أهم الأحداث فى حياة  
الدولة العباسية .. وما إخالك إلا عرفت الأبيات :

ليت هذا أنجزنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد  
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد  
زعموها سألت جارائها وتعرت ذات يوم تبرد  
أكما يعتنى تبصرنى عمر كن الله أم لا يقتصد؟  
فتضاحكن وقد قلن لها حسن فى كل عين من تود  
حسد حملنه من شأنها وقديماً كان فى الناس الحسد  
ولقد أذكر إذ قلت لها ودموعى فوق خلدى تطرد

— ٢٧ —

قلت من أنت فقالت أنا من شفه الوجد وأبلاه الكمد  
نحن أهل الخيف من أهل منى ما لقتول قتلناه قود  
قلت أهلاً أنتم بغيتنا فتمين فقالت أنا هند  
إنما أهلك جيران لنا إنما نحن وهم شئ أحد  
حدثوني أنها لي نفثت عقداً يا هذا تلك العقد  
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد  
أليست هذه مجموعة قصص كاملة .. قصة الغيرة بين الفتيات ،  
وقصة الحب ونشأته ؛ أترك لاحظت ما يقوله عن صلته بأهلها ، ألا  
ترى مثل هذا في حياتنا العادية حين يحاول الفتى أن يتقرب من فتاة ،  
فيخلق صلات بينهما قديمة ، ويقول لها إن أهله وأهلها شئ واحد ، ثم  
أتري إلى قرير الشاعر وكيف يذكر أن حبيبته تستعين عليه بالسحر وهو  
سعيد بسحرها هذا ، ثم البيت الأخير الذى يشبه قصة صاحب المطعم  
الذى علق لافتة تقول من يأكل اليوم ويدفع يأكل غداً مجاناً ، وترك  
اللافتة معلقة فلم يأت هذا الغد أبداً ، كلما قلت متى ميعادنا ضحكت  
هند وقالت بعد غد . .

أما ما قيل عن أثر هذه القصيدة فى التاريخ فإنه يروى أن إسحق  
الموصلى غنى أمام هارون الرشيد : واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من  
لا يستبد ، وظل يطرب فيها ويعيد ويزيد ، ثم يروى أن الرشيد ظل يردد  
إنما العاجز من لا يستبد حتى أنزل بالبرامكة ما أنزله ..

أليس عجيباً أن يكون هذا الشعر الرقيق الغزل العذب سبباً في  
نكبة ؟ ولكن الناس لا يستطيعون في شرهم أن ينأوا عن مواطن الجمال  
في الحياة ، فإذا هم يجعلون منها ظلماً واستبداداً ، علم الله لو كان عمر  
يدري أنه يقول هذا الشطر لغير الفن والجمال ما قاله ، فما قصد استبداد  
الكاره بل استبداد المحب ، وما قصد استبداد الرشيد ، بل استبداد هند .

### القصة فى شعر عنزة

إن عنزة بن شداد كان يعيش مأساة هى حبه لعبلة ، لا يجرو أن يتقدم للزواج منها ، حتى ظهر شأنه فأظهر حبه ، وظل وفيًا على هذا الحب ما امتدت به الحياة .

وقبل أن نعرض للقصة فى شعر عنزة لابد لنا أن نتعرف على لون من القصة القصيرة وهى تحبو إلى مكانتها فى عالم الأدب ..

تلك هى القصة الوصفية التى تعتمد على تقديم الصورة الفنية دون كبير عناية بالتمهيد والعقدة والحل ، وقد طالعنا الأدب العربى والغربى على السواء بنماذج شتى من هذا النوع من القصص ..

فإذا قرأنا معاً بعضاً من شعر عنزة وجدناه غنياً بهذا اللون .. والعجيب أننا نجد نفس هذا القصص عند المتنبى ، مع الفارق الزمنى الضخم الذى يفصل بين الشاعرين ..

وظاهرة أخرى غريبة عند عنزة ، هى أننا نجد شعره سهلاً قريب المنال ، الأمر الذى نفتقده فلا نجد عند شعراء متأخرين عنه كثيراً مثل الشاعر العملاق أبى تمام ، والآخر الشهير ابن هانئ الأندلسى ، فمن أين تأتت هذه السهولة لعنزة ، وهو ابن الجاهلية ؟ ما أحسب إلا أنه كان شاعراً مطبوعاً لا يبحث عن الغريب ، فقد كانت الألفاظ الشعرية بين يديه هى التى تؤدى المعنى الذى يريد من أقرب طريق .

عوداً إلى مأساة عنزة والقصة الوصفية فى شعره ..

أشاقك من عبل الخيال المبهج فقلبك منه لاعج يتوهج

— ٣٠ —

فقدت التى بانث فبت معذباً وتلك احتواها عنك للبين هودج  
ديار لذات الخدر عبلة أصبحت بها الأربع الهوج العواصف ترهج  
ألا هل ترى أن شط عنى مزارها وأزعجنا عن أهلها الآن مزعج  
فهل تبلغنى دارها شدنية هملقة بين القفار تهملج

\* \* \*

المح ظل ابتسامة على شفتيك . أتلك هى السهولة ، والواقع أنها  
بالنسبة لعنترة سهلة ، ثم ابتعد عنا استعمالها ، فصارت إلى ما صارت  
إليه من صعوبة ، ولا بأس عليه إن ألغز فى بيت ، فلو قد نظرت إلى  
الآيات السابقة لتبينت مدى السهولة عنده على أية حال فالشدنية  
موضع باليمن يعرف بالإبل الجيدة ، والهملقة الخفيفة السريعة ، والهملجة  
السرعة فى تبخر ، ونواصل السير مع الصورة ..

وقد سرت يا بنت الكرام مبادراً وتحتى مهرى من الإبل أهوج  
بارض تردى الماء من هضباتها فأصبح فيها نبتها يتوهج  
وأورق فى الآس والضال والغضا ونبق ونسرير وورد وموسج  
لئن أضحت الأطلال منها حواليا كأن لم يكن فيها من العيش مبهج  
فى طالما مازحت فيها عيلة ومازحنى فيها الغزال المغنج  
أغن مليح السدل أحور أكحل إذا نقى الخلد أبلج أدعج

\* \* \*

آن لى أن أبتسم أنا ، أرايت هذه الأوصاف الأخيرة وتلاحقها وليس  
بينها كلمة إلا سمعناها من الشعراء المحدثين .. وقبل هذا أرايت هذه



الصورة الوصفية للورود والأزهار وحنينه إلى عبيلة يمازحها هناك وتمازحه ، ولعل أروع ما قدمه عنزة إلى الشعر العربى عامة وإلى الشعر القصصى خاصة معلقته الشهيرة التى يبدوها بيت ما زلت أذهل كلما فكرت فيه ..

هل غادر الشعراء من مژدم أم هل عرفت الدار بعد توهم  
كيف لم يغادر الشعراء من مژدم وهو بعد فى الجاهلية ؟ . فماذا  
نقول نحن بعد ألفى عام من معلقته .. إذ كان عنزة يقول إن الشعراء لم  
يتركوا شيئاً لأحد يقوله فماذا يفعل المشتغلون بالفن الأدبى بعد ألفى  
عام ، ظل الشعراء وقد انضم إليهم الناثرون والروائيون والقصاصون  
يقولون ولا ينقطعون عن القول ، ألسنت ترى معنى أن المهم فى العمل  
الفنى لم يصبح المعنى ..

فلنقرأ معاً بعضاً من هذه القصيدة الرائعة :

أئننى علىّ بما علمت فيأنى سهل مخالفتى إذا لم أظلم  
فإذا ظلمت فيأنى ظلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم  
ولقد شربت من المدامة بعدما ركذ الهواجر بالمشوف المعلم  
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر فى الشمال مقدم  
فإذا شربت فيأنى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم  
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

\* \* \*

يخبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند الغنم

— ٣٢ —

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى ويض الهند تقطر من دمي  
فوددت تقييل السيوف لأنها لمعت كبارق تغرك المتبسم

\* \* \*

قصة وصفية جاهلية كاملة هذه الأبيات الثلاثة ، وامض معي قليلاً :  
لما سمعت نداء مرة قد علا وابنى ربيعة فى الغبار الأقيم  
ومحلم يسعون تحت لوائهم والموت تحت لواء آل محلم  
أيقنت أن سيكون عند لقائهم ضرب يطير عن الفراخ الجثم  
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذاكرون كررت غير مذمم  
يدعون عن الرماح كأنها أشطان بر فى لبان الأدهم  
مازلت أرميهم بثغرة لحره ولبانه حتى تسربل بالدم  
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعيرة وتحمحم  
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى  
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم  
أرأيت قصة هذا الحصان ، ورأيت هذه اللمحة العبقريّة ، لو كان  
يدري ما المحاورة اشتكى ، ثم أرأيت أسفه وسقمه من أجل حصانه الذى  
لم يشفه إلا قيل الفوارس ، ويك عنتر أقدم ..  
قصة كاملة النبض ، كاملة الأحداث ، أخاذة الوصف .

### القصة فى شعر المتنبى

كان المتنبى مشغولاً بنفسه شغلاً أخذ عليه جوانب حياته جميعاً ،  
وقد أصيب بالترجسية فأكلت حياته ، وأسلمته إلى الموت أيضاً ، فقد  
قيل إنه هجا قوماً بقصيدته الشهيرة « لم ينصف القوم ضبة » وحين أراد  
أهل ضبة أن ينتقموا لها منه خرج عليه بعضهم فى الطريق ، فحاول أبو  
الطيب الهروب ، فقال له فتاه أتهرب وأنت القاتل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى      والسيف والرمح والقرطاس والقلم  
فعاد إلى الحلبة ليحدث حثف شعره ..

ولا أعرف أحداً جديراً بأن يصاب بالغرور والترجسية مثل أبى  
الطيب المتنبى ، فالواقع أنه شاعر فذ عملاق ، خرج على جيله  
كالمعجزة ، ولقد قبلنا من كثير غيره أن يكون مغروراً ، بل أحببنا هذا  
الغرور عند الشعراء ، فمن حق المتنبى أن يبلغ من الغرور ما يشاء ، وأن  
نرحب نحن بغروره هذا ، وإلا فكيف نرفض ..

أعيدها نظرات منك صادقة      أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم  
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا      بأننى خير من تسعى به قدم  
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى      وأسمعت كلماتى من به صمم  
أنام ملء جفونى عن شواردها      ويسهر الخلق جرّاءها ويحتصم  
ليكن نرجسياً مغروراً كما يشاء .. فقد تعب هو بغروره .. وتمتعنا  
نحن ، فهو الذى أراد من زمنه ذا أن يبلغه ما ليس يبلغه من نفسه الزمن ،  
وهو الذى دفع ثمن ما أراد ولم ينل ..

أغلب شعر المتنبي فى المديح والهجاء ، أما الفخر فيتخلل المديح والهجاء على السواء ، وهكذا كان من الصعب أن أجد عنده ما يعيننى فى هذا البحث ، وخشيت أن يخذلنى كما خذلتنى أبو تمام ، الذى استعصى شعره أن يوصف بأى لون من ألوان القصص المعروفة .. ولكن المتنبي فى آخر الأمر كان أحنى على من أبى تمام ، ووجدت عنده قصيدتين فى كل منهما لون من ألوان القصص ، أما القصيدة الأولى فهى التى يقول فيها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم  
وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظام  
ويبدأ قصته بأبياته الشهيرة ..

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم  
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم  
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم  
ضمت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافى تحتها والقوادم  
بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار إلى اللبّات والنصر قادم  
ومن طلب الفتحة الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوامر  
نثرهم فوق الأحيدب كله كما نثرت فوق العروس الدراهم

وتلك قصة تستطيع أن تنسبها إلى الأدب الرومانى وأنت مطمئن ، فهى تصف البطولة وتبالغ فيها ما شاء الكاتب أن يبالغ .. ثم هو يصف أحداث الحرب فى دقة وإفاضة لا يصلان بها إلى الأدب الواقعى ، وإن

كانا يومئذ إلىه إيماء فضم الجناحين على القلب ووصف الضرب الذى يبدأ بالرعوس حين النصر بعيد ، والذى ينتهى بأعلى الصدر حين النصر قادم .. هذا الوصف يوشك أن يكون واقعياً لولا مبالغة الشعر فيه .. وعلى أية حال فليس من المعقول أن يقدم إلينا الشعر قصصاً خالصاً ، وإلا أصبح نثراً لا شعر فيه ، إنما جماله أنه يجمع بين الشعر والقصة ، آخذاً من خصائص كلا الفنين بنصيب ..

ونتقل مع المتنبي إلى لون آخر من ألوان القصص هو التجربة الشخصية ، وإن كثيراً من الكتاب يلجئون إلى ضمير المتكلم ، ليتحدثوا عن تجربة شخصية لهم .. أو ليؤهموا القارئ أنهم يقدمون له تجربة شخصية .. وهذا اللون من القصص قريب دائماً إلى نفس القارئ ، فهو يشعره أن الكاتب يصدقه القول ، ولست أدري لماذا يحب القارئ دائماً أن يحس أن الكاتب يصدقه القول .. أغلب الأمر أنه يحس بالمتعة فى التوهم أنه الصديق ، بنا إلى المتنبي لنرى تجربته الشخصية تلك ..

أقمت بأرض مصر فلا ورائى تحب بى الركاب ولا أمامى  
ولعلك أحسست من الكلمة الأولى أنه فى سبيله أن يقص علينا شيئاً :

ومنى الفراش وكان جنبى يمل لقاءه فى كل عام  
قليل عائدى سقم فوآدى كثير حاسدى صعب مرامى  
عليل الجسم ممتع القيام شديد السكر من غير المدام  
وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعاثها وباتت فى عظامي  
 يضيق الجلد عن نفسى وعنهما فتوسعه بأنواع المقام  
 أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام  
 ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألفاك فى الكرب العظام  
 جرحت مجرحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام  
 يقول لى الطبيب أكلت شيئاً وداؤك فى شرايك والطعام  
 وما فى طبه أنى جواد أضر بجسمه طول الحمام  
 فإن أمرض فما مرض اصطبارى وإن أحمم فما حمم اعتزامى  
 وإن أسلم فما أبقي ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام  
 تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام  
 وهكذا ينهى قصته بهذه الحكمة ، التى كان يصر على إيرادها  
 كتاب القصة فى النشأة الأولى للقصة .. وترك لنا مع الإعجاب بفنه  
 الرائع فى الشعر تلك الدهشة أن تلتقى الفنون هذا اللقاء العجيب الذى  
 يدل على وحدانية الخالق جل وعلا ، ووحدة الكون فى فكره ، وفى  
 زمانه ، مهما يتباعد فكر عن فكر وزمان عن زمان ..

### القصة فى شعر ابن الرومى

كان ابن الرومى أهجى شعراء عصره ، وكان لا يقف به شئ ، حتى لقد كان يتناول على الجميع ، وكان فى عصره وزير قاس هو أبو الحسن القاسم بن عبيد الله ، وكان هذا الوزير معروفاً ببطشه وجبروته . ولكن هذا البطش وذلك الجبروت لم يمنعنا ابن الرومى من هجائه ، فهجاه وأبى الوزير أن يفلته دون عقاب ، وعقاب الوزير لا يجوز أن يقل عن القتل ، فهو يدس إليه أحد أعوانه فيدعوه فى مجلس الوزير إلى طعام ، ويقدم إليه الطعام مسموماً ، ويحس ابن الرومى بالسهم يسرى فى جسمه فيهم بالقيام ، فيقول الوزير متشفياً : إلى أين تذهب ؟ فيقول ابن الرومى : « ما طريقى على النار » ويخرج لينتظر الموت فى منزله ، وما هى إلا أيام حتى يوافيه . ولابن الرومى قصص فى شعره كثير ، وغالبها ما ينهيا بحكمة . وهذه القصص فيها القصص القصيرة كل القصص ، ومنها القصص التى تطول وتجمل فى طولها غاية الجمال .

ومن قصصه القصيرة المعجزة قصته عن شعرتين بيضاوين . ولابن الرومى أحاديث كثيرة عن الشيب ، ولكن لعل هذه الأبيات من أجمل ما قال - فهى تكون قصة فيها الومضة السريعة واللفتة الذهنية الذكية ، وفيها أيضاً الحكمة التى يحب ابن الرومى أن ينهى بها قصصه القصيرة ، وكأنه كان ينظر إلى مطالع القصة فى بواكيرها الأولى . يقول :

نظرت إلى المرأة فروعتنى طوالع شيتين ألتا بى  
فأما شيبة ففرعت منها إلى المقراض جبا فى التصايبى

وأما شبية فصفحت عنها لتشهد بالبراءة من خصايبى  
فأعجب بالدليل على مشيب أقمت به الدليل على شبايبى  
ويروى لك فى قصة أخرى ما وقع له مع العمامة :

تعممت إحساناً لرأسى برهة من القرّ طورا والحرور إذا صفع  
فلما وهى طول التعمم لتى فازرى بها بعد الإطالة والقرع  
عزمت على لبس العمامة ... لتسد ما جرت على من الصلع  
فيالك من جان علىّ جناية جعلت إليه من جنايته الفزع  
وأعجب شىء كان دائى جعلته دوائى على عمد وأعجب أن نفع  
وننتقل من هذه القصص البالغة القصر التى نرى مثلها فى عالم  
القصص اليوم منتشرة على صفحات الجرائد ، وكأنى بكتابها أعجبوا  
بهذه الآثار لابن الرومى ، ولو أنى أشك فى ذلك شكّا يكاد يبلغ درجة  
اليقين ، فكتاب القصة اليوم فى أغلب أمرهم لا ينظرون إلى تراثهم  
العربى ، ويأنفون أن ينسبوا أدبهم إليه لأنهم يخشون أن يتهموا  
بالرجعية ، فالتقدمية عندهم هى البعد عن الأدب العربى والتراث  
العربى ، وإنى لأعجب ماذا يبقى لهم إن هم فعلوا ، لا علينا ، بين يدى  
قصة لابن الرومى كاملة لا أشك فى أنه قصد بكتابتها أن تكون قصة بل  
هو ينهيا كما تنتهى القصة الحديثة دون أن يقدم إليك حكمة أو  
موعظة ، فهى قصة تنسب إلى مذهب الفن للفن ، يقول :

كبت ربة الشايبا العذاب تشكى إلى طول اجتبابى  
وأتانى الرسول عنها بقول لم تبينه فى سطور الكتاب



أيها الظالم الذى قدر الله به فى الأنام طول عذابى  
لو علمت الذى يجسمى من السقم وضر الهوى لكنت جوابى  
فتجشمت نحوها الهول والحرا س قد هموا على الأبواب  
وهى فى نسوة حواسر لم يكحلن جفناً برقدة لارتقابى  
طالعات على من شرف القصـر يحاذرن رقبة البواب  
ولها بينهم فى حديث جله ليته يرق لما بى  
فتوقفت ساعة ثم نادىـت سلام منى على الأحباب  
فتباشرن بى وأشرفن نحوى بشهيق وزفرة وانتحاب  
ثم قالت : أما اتقيت الله والناس فى طول هجرتى واجتبابى  
قلت : ما عاق عن زيارتك الكاس وصوت يهيج من أطرابى  
قصة كاملة كما ترى . أشبه ما تكون بقصص المراهقين الذين  
يدلون على رفاقهم بأن من يحبون لا يطعمن النوم من شدة الحب . فإذا  
عرفت أن ابن الرومى لم يكن جميلاً ولا وضيقاً ولا حتى أنيقاً . أدركت  
أن القصة جميعها تمثل أحلام المراهقة ، ومن هنا نحس فيها بنبضة  
الصدق . فالصدق الفنى شئ آخر غير الصدق الأخلاقى ، فإن الرغبة  
الضعيفة التى تثور فى نفس الفنان فيعبر عنها فى عمل فنى تصبح صادقة  
لأنها تعبر عن حالة نفسية صادقة . ولا شأن لى إذا كان ما يرويه الفنان  
وقع حقاً أو لم يقع . وهكذا نجد أن ابن الرومى قد أفرغ فى هذه  
القصيدة كل ما كان يتمناه ولا يستطيع أن يصل إليه ، فتاته واقفة  
تستقبله فى موكب من فتيات أخريات وهى لا تتحدث إلا عن أملها أن

يرق ابن الرومى لما بها ، وهى تقول له ألا ترعى الله فى طول هجرتى واجتنابى ؟ ولا ينسى ابن الرومى أيضاً أن يرسم نفسه فى صورة البطل الصنديد ، فتجشمت نحوها الهول والحراس قد هموا على الأبواب ، ولا ينسى أن يومئ إلينا أنها كريمة المنبت ، عريقة المحتد ، من دونها يقف الحراس على الأبواب .

كل هذه آمال ساقها لنا ابن الرومى فى هذه القصة الشعرية الرائعة . ترى هل نظر ابن الرومى إلى عمر بن أبى ربيعة فى قصيدته « أمن آل نعم » ، لا عليه إن فعل ، فالفن أداء ، والمعانى قال عنها عنزة :  
« هل غادر الشعراء من مژدم »

\* \* \*

## القصة في شعر البحري

البحري ، ذلك الصائغ العبقري ، لم تعرف العرب قبله موسيقى  
كتلك الموسيقى التي يعزف بها شعره في أناقة من الأسلوب وفي أعراس  
من اللفظ ، وقد التأم كلاهما على المعنى الشريف الذكي ، فكان هذا  
الشعر الخالد ، الذي توارثناه عن الأجيال ، أما القصة في شعر البحري  
فهى فن باذخ رفيع ، تسلل إلى شعره على غير قصد منه ، فهو يروى  
لك الواقعة دون أن يقصد روايتها ، وكأنه يسليك بقصته ، أو كأنه يعلم  
أنك تعرف القصة فهو يعلق عليها ..

اقرأ معى :

أسيث لأخوالى ( ربيعة ) إذ عفت	مصايفها منها وأقوت ربوعها
بكرهى أن باتت خلاء ديارها	ووحشاً مغاليها وشتى جميعها
تذم الفتاة الرود شيمة بعلمها	إذا بات دون الثأر وهو ضجيعها
حيّة شغب جاهلى وعزة	كليبية أعياء الرجال خضوعها
وفرسان هيجاء نجيش صدورهم	بأحقادها حتى تضيق دروعها
تقتل من وتر أعز نفوسها	عليها بأيدي ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها	تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينهم	شواجر أرحام ملوم قُطوعها

وكنت — أمين الله — مولى حياتها ومولاك (فتح) يوم ذاك شفيعتها  
 لعمرى ، لقد شرفته بصنيعة إليهم ونعمى ظلّ فيهم يشيعها  
 تألفهم من بعدما شردت بهم حفاظ أخلاق بطىء رجوعها  
 فأبصر غاوبها المحجة فاهتدى وأقصر غاليها ودانى شسوعها  
 وأمضى قضاء بينها فتحاجرت ومخفوضها راض به ورفيعها  
 فقد ركزت سمر الرماح ، وأعمدت رفاق الظبا : مجلوها وصنيعها  
 فقرت قلوب كان جثا وجيبها ونامت عيون كان نزرأ هجوعها  
 ربطت بصلح القوم نافر جأشها فقرت حشاها واطمأنت ضلوعها  
 أليست هذه هى قصة الحرب ، الثأر منذ بدء الخليقة .. تناولها  
 الشاعر العملاق فى سرد فنى رائع .. وفى نظرات إنسانية لماحة .. فذكر  
 الزوجة أن بات زوجها دون أن ينال ثأراً ، وذكر صلات القربى والرحم  
 والرماح تقطعها بأيد ما تكاد تطيعها ، تسيل الدماء ثم تذكر القربى  
 فتنثال الدموع .. يعرض لهذا جميعاً فى تمهيد فنى لهذا الفضل السابغ  
 الذى أضفاه الملك حتى أقر المضطرب ، وعقد الصلح ، وتنتهى القصة  
 بنهاية مشرفة سعيدة .. وللبحتى قصيدة تصور قصة كاملة ..  
 وأنا لن أقدم لهذه القصيدة وإنما سأرويه ، وهى من أشهر قصائد  
 البحتى :

محل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره  
 ورب زمان ناعم — ثم — عهد ترق حواشيه ويورق ناضره

— ٤٣ —

تغير حسن « الجعفرى » وأنسه وقوض بادى « الجعفرى » وحاضره  
تحمّل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقاسيره  
إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره  
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره  
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وستاره  
كان لم تبت فيه الخلافة طلبة بشاشتها ، والمملك يشرق زاهره  
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غص مكاسره  
فأين الحجاب الصعب حتى تمنعت بهيتها أبوابه ومقاصره  
وأين عميد الناس فى كل نوبة تنوب ، وناهى الدهر فيهم وأمره ؟  
تخفى له مغتاله تحت غرة وأولى لمن يغتاله لو يجاهره  
ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى درى الفاتك العجلان كيف أساوره  
فلا ملّى الباقي تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره  
لنعم الدم المسفوح ليلة « جعفر » هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره  
أكان ولى العهد أضمر غدره ؟ فمن عجب أن ولّى العهد غادره !  
أترى القصة تحتاج إلى تعليق ؟ ألا ترى معنى فيها التمهيد والعقدة  
والنهاية ؟ وللبحترى بعد ذلك قصص قصيرة منها القرس الذى أهداه له  
المتوكل فأرسل يقول له :

أهديتنى أعجوبة هسى هسى العجائب نادرة  
فرس كأن هوبه وشك الرياح الطائرة

— ٤٤ —

فى ليلة قطع المسافر  
وقصته مع ذلك المسافر الذى لم يستطع توديعه :  
اللّه جارك فى انطلاقك      تَلَقَاءَ شامك أو عراقك  
لا تعذلى فى انطلاقك      لك يوم سرت ولم ألافك  
إنى خشيت مواقفاً      للبين تسفح غرب ماك  
وذكرت ما يجد المودع      عند ضمك واعتناقك  
فتركت ذاك تَعْمُداً      وخرجت أهرب من فراقك

## القصة فى شعر حافظ إبراهيم

إذا اقتربنا إلى الشعر الحديث .. وجدنا القصة قد أخذت فيها سمات .. فنجد عند حافظ مثلاً كثيراً من الشعر يتلون بلون القصة .. وإن كانت القصة حتى ذلك الحين قد ظلت غريبة على الأدب العربى ، يتلمسها فيما كتب الغرب .. ولا ينشئها المنشئون فى الأدب العربى ، ولكن الرياح الغربية كانت قد داعبت الذوق العربى .. حتى لقد حملت حافظاً على أن يترجم البؤساء لفكتور هيجو ، وحملت حافظاً نفسه أن يكتب ليالى سطیح قرية كل القرب من القصة . ولعل هذا الاتجاه هو الذى جعل حافظاً يداعب القصة فى شعره .. دون أن يقصد إلى ذلك قصداً عامداً ..

ولعل من طريف ما يروى عنه أنه كان ضيفاً على أبى فى البلدة ، وطلب طعاماً ، فتأخرت عليه الخادمة .. وكان اسمها فاطمة .. فلجأ إلى رئيس الخدم ، وكان اسمه أحمد ، فسارع إلى تلبية أمره فكتب هذه القصة فى بيتين ..

إذا جئتهم طالباً لقمة وجدت مظاهرة قادمة  
ألا بـارك الله فى أحمد ولعنة ربى على فاطمة  
وهى قصة يبين فيها المزاح ، وقد شاع كثير مثلها لحافظ ، من ذلك أنه كان يشرب مع أحد المشايخ الأجلاء وبعض الأصدقاء ، وفجأة جاء

— ٤٦ —

للشيخ من يخبره أن بعض مريديه قدموا ليؤمهم في الصلاة ، فقام الشيخ إلى مريديه وكتب حافظ ..

الشيخ قام يصلى ونحن نسكرك عنه

تقبل الله منى ولا تقبل منى

وكان معروفاً عن رشدى باشا وعدلى باشا رئيس الوزارة أن تعليمهما فرنسى ، وأنهما لا يصليان ، ولكنهما اضطر أن يصاحبا الملك « فؤاد » في الصلاة .. ولم يستطع حافظ أن يسكت :

عدلى يصلى ورشدى آمنت بالله ربى

يا رب أبى فؤاداً حتى يصلى ألى

وقد كان ألى المعتمد البريطانى فى مصر فى ذلك الحين ..

وفى عام ١٩٠٨ وقع فى مسينا — وهى بلدة بجنوبى إيطاليا — زلزال عنيف لا يجوز لى أن أصفه وإنما أترك حافظاً يقول :

بئانى إن كنتم تعلمان ما دهى الكون أيها الفرقدان

غضب الله أم تمردت الأرض ض فاحنت على بنى الإنسان

ليس هذا سبحان ربى ولا ذا ك ولكن طبيعة الأكوان

كنت أخشى البحار والموت فيها راصد غفلة من الربان

فإذا الأرض والبحار سواء فى خلاق كلاهما غادران

ما لمسلمين عولجت فى صباها ودعاها من الردى داعيان

خفت ثم أغرقت ثم بادت قضى الأمر كله فى ثوانى

بغت الأرض والجبال عليها وطفى البحر أيما طغيان



— ٤٧ —

تلك تغلى حقدًا عليها فتشقق انشقاقاً من كثرة الغليان  
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً بشواظ من مارج ودخان  
وتسوق البحار ردًا عليها جيش موج نائي الجناحين داني  
فاستيحال النجاء واستحكم اليأس وخارت عزائم الشجعان  
رُب طفل قد ساخ في باطن الأرض ينادى : أمي ، أبى ، أدركاني  
وأب داخل إلى النار يمشى مستميتاً تمتد منه اليدان  
باحثاً عن بناته وبنيه مروع الخطر مستطير الجنان  
تأكل النار منه لا هو ناج من بطئها ولا اللظى عنه داني

أترى ظلال الواقعية في هذه القصة المنظومة ؟ إنه يصف بتفصيل  
دقيق شأن كتاب الرواية الواقعيين حين بدأ مذهبهم هذا يسود الفن  
الروائي وإن كان الوصف المفصل هنا أخذاً بفضل اللغة الجميلة والألفاظ  
المتنقة ، فقد كان في الرواية الواقعية في أول نشأة المذهب الواقعي مملاً ،  
يكاد يصرف القارئ عن إكمال الرواية .. فإن القارئ قد تعود الأدب  
الرومانى الذى كانت الإطالة فيه فى المديح أو الذم ، أما هذه التفصيلات  
فى وصف الحدث وما يحيط به من جميع جوانبه فهو ابن المذهب  
الواقعي .. وما زال هذا المذهب بقرائه وما زال قراؤه به حتى اعتدل  
وعدل عن الإطالة فى التفاصيل ، ولعل دخول السيرالية والتعبيرية فى  
الفنون قد جعل أغلب الكتاب الواقعيين يكفون بلمسة هنا ، وأخرى  
هناك ، فإذا الشخصية أمامك واضحة المعالم ، مكتملة الملامح ..

— ٤٨ —

وأنا لا أعرف إن كان حافظ قد قرأ فى الأدب الواقعى أم لم يقرأ ،  
بل إننى أرجح أنه لم يقرأ منه ولا عنه ولا سمع به .. وجرى منه القلم  
فكانت هذه القصة الواقعية .. ترى أى مذهب من الفن القصصى نحن  
واجدون عند أمير الشعراء حين نلاقيه به فى نهاية المطاف ؟  
فلنتنظر حتى يتم اللقاء .. ونرى معاً القصة عند أحمد شوقى أمير  
الشعراء .

## القصة فى شعر أحمد شوقى

إن صلتى بأحمد شوقى أمير الشعراء صلة وثيقة وطيدة ، فقد كان أبى يحبه ويحب شعره ، وأحسب أن شعر « شوقى » هذا أول شعر سمعته فى حياتى .. وقد جذبنى منذ سمعته .. وتعلقت به فى إعجاب وإكبار وتحمس .. وإننى من الكثيرين الذين يعتبرون شوقى هو أعظم الشعراء الذين أنجبتهم العربية منذ عرف الشعر .. فقد استطاع أن يجمع ضخامة المتنبى ، وصياغة البحزى ، وأناقة الشريف الرضى .. وصناعة أبى تمام .. كل ذلك فى شعر يتسم بعلاجه هو .. وعلامح جيله وبلاده .. ثم هو الذى أنشأ المسرحية الشعرية فى الأدب العربى .. وإن كان عزيز أباطة قد طور المسرحية بعده وجعلها فناً أشم باذخاً ، فلشوقى دائماً فضل السبق والريادة .. كما كان عزيز باشا يقول دائماً ..

وقد بدأت قراءة شوقى وحفظ شعره منذ لا أذكر متى .. ولكننى على أية حال أذكر أننى قرأت مجنون ليلى ثلاث عشرة مرة متعاقبة وأنا أنتظر نتيجة الشهادة الابتدائية فى عام ١٩٣٩ وكان عمرى إذاك اثنتى عشرة سنة ..

ولو شئت أن أتكلم عن القصة عند شوقى .. لكتبت فيه وحده مجموعة تستطيع أن تصل إلى عشرين فصلاً .. إن لم تكن أكثر ..

— ٥٠ —

فالقصة التاريخية عنده لا نهاية لها .. واللفتات التاريخية أيضاً لا يمكن أن  
يحيطها بحث ..  
فحين يقول مثلاً :

والعلم بدرى أحل لأهله ما يفعلون  
مشيراً بذلك إلى أن النبي بشر أهل بدر بأن الله غفر لهم ذنوبهم .  
و حين يقول :

السبق من عاداتكم أترى القيامة تسبقون  
مشيراً إلى سبق قدماء المصريين على زمانهم ..  
تحس مدى اتصاله بالتاريخ وتعلقه به .

ولقد كنت وأنا أنتقل بين قصائد شوقي حائراً في أيها أختار لك ،  
وأيها أدع . فكرت في مصائر الأيام وأنا أكاد أحفظها وهي تمثل الرواية  
الشعرية في أروع صورها .. وفكرت أن أقتبس لك من كبار الحوادث  
في وادي النيل ، وهي تمثل القصة التاريخية الكاملة ، وفكرت وفكرت  
وانتهيت أن أترك القلم يجري ، وهو سيقدم لك دون عناء — روائع  
خالدات ..

اقرأ معي هذه القصة الكاملة ..

وأغن أكحل من مها يكفيه علقته محاجر دمي وعلقته  
لبنان دارته وفيه كنامة بين القنا الخطار خط نخبته  
السلسيل من الجداول ورده والآس من خضر الخمائل قوته  
إن قلت تمثال الجمال منصّباً قال الجمال براحتي مثله

دخل الكنيسة فارتقت فلم يطل فأتيت دون طريقه فزحمته  
 فازور غضباناً وأعرض نافراً حال من الغيد الملاح عرفته  
 فصرفت تلعايبى إلى أترابه وزعمتهن لبانتى فأغرته  
 فمشى إلى وليس أول جوذر وقعت عليه جبائلى ففقتته  
 قد جاء من سحر الجفون فصادنى وأثبت من سحر البيان فصدته  
 قصة كاملة فيها الرومانسية فى أنضر صورها وأزهاها ، وفيها  
 وصف بطلة القصة فى لفظ موفق ، ذلك الوصف الذى يقدح لدى  
 القارئ شرارة التشويق تهم بأن تقول له : كفى ، ثم بعد ، ثم تتأنى ،  
 نريد أن نسمع من الوصف مزيداً ..

وانظر معى كيف كتب قصة مؤتمر الصلح بين الأحزاب فى مصر  
 فكتب قصة كفاح مصر وبرلمانها ..

بشرى إلى الوادى تهز نباته هو والريبع مناكب الأرواح  
 تسرى ملمحة الحجول على الربى وتسيل غرتها لكل بطاح  
 التأمت الأحزاب بعد تصدع وتعالت الأقلام بعد تلاهى  
 سحبت على الأحقاد أذيال الهوى ومشى على الأوتار والأقداح  
 ترمى بطرفك فى المجمع لا ترى غير التعانق واشتباك الراح  
 شتى فضائل فى الرجال كأنها شتى سلاح من قنا وصفاح  
 فإذا هى اجتمعت لملك جهة كانت حصون مناعة ونطاح  
 الله ألف للبلاد صدورهما من كل داهية وكل صراح  
 وزراء مملكة دعائم دولة أعلام مؤتمر أسود صباح

يبنون بالدستور حائط ملكهم لا بالصفاح ولا على الأرماع  
وجواهر التيجان سالم تتخذ من معدن الدستور غير صحاح  
احتل حصن السحق غير جنوده وتكالبت أيد على الملتاح  
ضجت على أبطالها ثكناته واستوحشت لكماتها النزاح  
هجرت أرائكه وعطل عوده وخلا من الفادين والرواح  
وعلاه نسج العنكبوت فزاده كالغار من شرف وسمت صلاح  
أرأيت كيف روى مخنة الدستور والبرلمان فى مصر . ثم أرأيت هذه  
الإشارة فى البيت الأخير ، وكيف روى لك بها قصة الغار والعنكبوت  
فى هجرة النبى عليه الصلاة والسلام ؟ ورأيت ورأيت وما أعظم ما نرى  
لشوقى وما أروع ما بهرنا شعره العبقرى وفنه الخالد .

كنت أنوى أن أخصص هذا الفصل لشعر الأطفال عند شوقى ،  
الذى أراد به أن ينقل فن لافونتين الفرنسى إلى الشعر العربى ، ولكن عز  
على أن أترك قصيدة أحببتها وحفظتها فى يوم من الأيام ، وتمثل الحياة  
وقصة الحياة ، دون أن أنقل منها ، إنها قصيدة مصاير الأيام ، وهى  
قصيدة طويلة تربو على الثمانين بيتاً أو قد تزيد ، ولكننى سأحاول أن  
أقدم القصة منها ، فى نقلات سريعة ، إن استطعت إلى ذلك سبيلاً:

ألا حبذا صحبة المكتب وأحب بأيامه أحب  
ويحبذا صبيحة يرحون عنان الحياة عليهم صبي  
يراح ويغدى بهم كالقطيع على مشرق الشمس والمغرب  
إلى مرتع ألفوا غيره وراع غريب العصا أجنبى

— ٥٣ —

ومستقبل من قيود الحياة      شديد على النفس مستصعب  
توارت بهم ساعة للزمان      على الناس دائرة العقرب  
تشول يابرتها للشباب      وتقذف بالسهم فى الشبب  
يصدق بطرقتها القضاء      وتجري المقادير فى اللولب ...  
وتلك الأواعى بأيمانهم      حقائب فيها الغد المختبى  
ففيها الذى إن يقم لا يعد      من الناس أو يعض لا يحسب  
وفيها اللواء وفيها النار      وفيها التبع وفيها النبى  
وفيها المؤخر خلف الزحام      وفيها المقدم فى الموكب  
أليست هذه بواكير قصة الحياة فى الطفولة ، فلنتقل معه إلى الصبا :  
جميل عليهم قشيب الثياب      ومالم يجمل ولم يقشيب  
كساهم بنان الصبا حلة      أعز من المخمل المذهب  
وأبهى من الورد تحت الندى      إذا رف فى فرعه الأهدب  
وأطهر من ذيلها لم يلم      من الناس ماش ولم يسحب  
ثم انظر إلى هذا الهول الذى تحيط به الحياة أبناءها ، وأمسك قلبك  
أن يطير من مكانه :

قطيع يزجيه راع من الدهر      رليس بلين ولا صئلب  
أهابت هراوته بالرفاق      ونادت على الحيد الهرب  
وصرف قطعانه فاستبد      ولم يخش شيئاً ولم يرهب  
أراد لمن شاء رعى الجديب      وأنزل من شاء بالمخصب  
وروى على ربهها النهلات      ورد الظماء فلم تشرب

وألقى رقاباً إلى الضارين وذن بأخرى فلم تضرب  
وليس يبالي رضا المسزيج ولا ضجر الناقم المتعب  
وليس بمبق على الحاضرين وليس بباك على الغيب  
فيا ويهم هل أحسوا الحياة لقد لعبوا وهى لم تلعب  
تجرب فيهم وما يعلمون كتجربة الطب فى الأرنب  
سقتهم بسم جرى فى الأصول وروى الفروع ولم ينضب  
لابد أن أقف . أحس قلبى يتقافز فى صدرى .. ما هذه الحياة ؟  
ولكنها الحياة ، وما هذا الهول ؟ ولكنها الحقيقة ، ذلك هو الفنان يضع  
أمامك الحقيقة التى تعرفها فتزوعك وكأنك لم تكن تعرفها .

أغمضى معاً فى قصة الحياة .. وكيف نستطيع التوقف ، وهل تسمح  
لنا الحياة أن نتوقف ، فلنمض ، فإن الحياة تريد لنا أن نغمضى .

ودار الزمان فـدال الصبا وشب الصغار عن المكتب  
وجند الطلاب وكـد الشباب وأوغل فى الصعب فالأصعب  
وعذب بالعلم طلابه وغصوا بمنهله الأعذب  
رمتهم به شهوات الحياة وحسب الباهة والمكسب  
وزهو الأبوة من منجب يفاخر من ليس بالمنجب  
تؤلفهم فى ظلال الرخاء وفى كنف النسب الأقرب  
وتكسر فيهم غرور الثراء وزهو الولادة والمنصب  
يسوت منزهة كالعتيق وإن لم تستر ولم تحجب  
يدانى ثراها ترى مكة ويقرب فى الطهر من يثرب



— ٥٥ —

إذا ما رأيتهمو حولها    يوجون كالنحل عند الربى  
رأيت الحضارة فى حصنها    هناك وفى جندها الأغلب  
وبعد أن رسم لك فى درامية باذخة دور القدر فى حياة الإنسان  
يصل إلى نهاية القصة .

وخدش ظفر الزمان الوجوه    وغيض من بشرها المعجب  
وغال الحدالة شرخ الشباب    ولو شبت المرد فى الشبب  
سرى الشيب متدأ فى الرءوس    سرى النار فى الموضع المعشب  
حريق أحاط بخيط الحياة    تعجبت كيف عليهم غبى  
ومن تظهر النار فى داره    وفى زرعه منهم يرعب  
حياة يغامر فيها امرؤ    تسليح بالناب والمخلب  
وصار إلى الفاقة ابن الغنى    ولاقى الغنى ولد المثرّب  
وقد ذهب الممتلى صحة    وصح السقيم فلم يذهب  
وكم منجب فى تلقى الدروس    تلقى الحياة فلم ينبجب  
وغاب الرفاق كأن لم يكن    بهم لك عهد ولم تصحب ...  
إلى أن فسوا ثلة .. ثلة    فناء السراب على السبب

\* \* \*

لا تعليق .

التميز

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه



## هذا الكتاب

جولة فنية خلال الشعر العربي قديمه  
وحديثه .. يتسع فيها المؤلف جوارح القصة في  
أعمال عدد من الشعراء الذين أثروا بعطائهم  
الوجدان العربي منذ أقدم العصور .. ابتداء من  
امرئ القيس وعندرة مروّراً بالمتنبي والبحري  
وابن الرومي .. وانتهاء إلى شوقي وحافظ ،  
مؤكدًا أن الشعر كفن يمكن أن يكون أداة  
طبعة .. ومحتوى قصصيًا ثريًا